الافْتِتَاحِيَّة

تحرير العلم من التَّبَعِيَّة

وقعت معظم بلدان العالم الإسلاميّ تحت الاحتلال الغربيّ المباشر لسنوات طويلة من الزَّمن امتدَّت إلى بضعة عقود، وتجاوز بعضها أكثر من قرن كما حصل مع الاحتلال الفرنسيّ للجزائر الَّذي امتدَّ نحو مئة وثلاثين عامًا. ولم تحصل تلك الدُّول على استقلالها إلَّا في منتصف القرن العشرين بعد نضالاتٍ وتضحياتٍ واسعة قدَّمتها شعوب تلك البلدان الَّتي وجدت نفسها بعد الاستقلال وبعد انسحاب المُحتلّ أمام تحدِّيات جديدة، تتمثَّل في بناءِ الدَّولة ومُؤسَّساتها على المستويات: الاقتصاديَّة، والإداريَّة، والأكاديميَّة، والثَّقافيَّة، والعلميَّة.

لم تكن القيادات السِّياسيَّة والنُّخب الثّقافيَّة في تلك البلدان الّتي خرجت من تحت الاحتلال تملك رؤًى واضحةً وثابتةً بديلةً في عمليَّة الانتقال من تحت التَّبَعِيَّة والاحتلال الغربيّين إلى الاستقلال بمختلف مستوياته. لذا، عمدت تلك القيادات والنُّخب غالبًا إلى تقليد ما كان عليه ذلك الاحتلال في مختلف مؤسَّساته العسكريَّة، والإداريَّة، والأكاديميَّة. وكان لافتًا أن تكون جامعات ما بعد الاستقلال

هي الَّتي استمرَّت في تدريس المناهج الَّتي كانت معتمدة في أثناء الاحتلال؛ بحيث بقيت وظيفة الجامعة طوال عقود منذ الاستقلال في منتصف القرن الماضي إلى اليوم تقتصر على نقل علوم الغرب ومناهجه ونظريّاته في مختلف العلوم: الإنسانيَّة، والاجتماعيَّة، والاداريّة، والاقتصاديّة؛ أي أنَّ الجامعات لم تنتقل في المرحلة الجديدة إلى وظيفةٍ جديدةٍ هي إنتاج العلم والمعرفة، وخدمة المجتمع بما يتلاءم مع حاجات ما بعد التَّحرُّر من الاحتلال والاستعمار. وعلى امتداد عقود، تخرَّج من تلك الجامعات عشرات آلاف الطُّلَّاب الَّذين تشكَّلت معرفتهم وثقافتهم وفقًا لعلوم الغرب ونظريَّاته. في الوقت الَّذي كانت تسعى فيه الشُّعوب إلى تشكيل هُويّتها الثّقافيَّة المُستقلَّة انسجامًا مع انتماءاتها الدِّينيَّة، أو القوميَّة؛ ما أدَّى في الواقع إلى هُوَّةٍ ثقافيَّةٍ بين النُّخب ذوي الميول والاتِّجاهات الغربيَّة، وبين الشُّعوب الَّتي تتطلَّعُ إلى التَّحرُّر من الهيمنةِ والتَّخلُّص من التَّبَعيَّة.

لقد تكرَّر مثل ذلك الأمر في بلدان أخرى في أفريقيا، وفي أميركا اللَّاتينيَّة، الَّتي حافظت فيها الدُّول الاستعماريّة على النُّفوذ من خلال الجامعات والنُّخب والتّعاون الثَّقافيّ؛ بحيث باتت الجامعات في معظم دول العالم غير الغربيِّ تشبه ما هي عليه الجامعات ومناهجها ومُقرَّراتها وتخصُّصاتها في الغرب نفسه. ويمكن أن نلاحظ، على سبيل المثال، حجم الاهتمام الفرنسيّ بما يُسمّى الدُّول الفرنكوفونيَّة الَّتي اعتمدت الفرنسيَّة في مناهجها التَّعليميَّة: الابتدائيَّة، والثَّانويَّة، والجامعيَّة. وتعقد فرنسا لقاءً دوريًّا لرؤساء تلك الجامعات، كما تُقدِّم الدَّعم للمُؤسَّسات المختلفة من أجل استمرار ذلك النُّفوذ الفرنكوفونيّ على الرّغم من خروج فرنسا المحتلَّة من تلك البلدان منذ أكثر من نصف قرن من الزَّمن. وقد عمدت فرنسا في ذلك الإطار، وبعدما اتَّخذت مع الدُّول الأوروبيَّة الأخرى قرارًا بتعديل مناهجها التَّعليميَّة الجامعيَّة في مطلع التِّسعينيَّات الَّذي أُطلق عليه «نظام التَّعليم الأوروبيّ المُوحّد» إلى طلب القيام بالتَّعديلات نفسها في البلدان الفرنكوفونيَّة خارج أوروبا، وقدَّمت الدَّعْم المالي للجامعات في تلك البلدان للانتقال إلى نظام تعليميٍّ مُطابقٍ للنِّظام الأوروبيِّ، وقد حصل مثل ذلك في كلٍّ من: لبنان، والمغرب، والجزائر، ودول أفريقيَّة عدَّة.

لم يقتصر الأمر على تلك العلاقة التَّبَعيَّة الفوقيَّة الَّتي تُتيح لدولة مثل فرنسا أن تطلب من دول أخرى اعتماد أنظمتها التَّعليميَّة الجامعيَّة نفسها؛ بل هدَّدت فرنسا

بعدم الاعتراف بشهادات تلك الدُّول إذا لم تلتزم التَّغييرات نفسها الَّتي حصلت في نظام التَّعليم الأوروبيِّ المُوحّد الجديد...

أسهمت الهيمنة الغربيَّة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة طوال القرن الماضي في تلك الهيمنة الثّقافيَّة والأكاديميَّة الغربيَّة. وقد تعامل الباحثون الغربيُّون بدورهم من موقع التَّعالي نفسه مع شعوب العالم وبلدانهم غير الغربيَّة. لا؛ بل قام هؤلاء غالبًا بدراساتٍ على تلك الشُّعوب لخدمةِ سياسات حكوماتهم الاستعماريَّة، كما حصل في كثير من الدِّراسات الإستشراقيَّة والأنثروبولوجيَّة. ومن هذا الموقع نفسه، سوف نلاحظ كيف تصدر سنويًّا بعض المراكز، أو المُؤسَّسات البحثيَّة تصنيفات للجامعات في العالم من حيث الإنتاج العلميِّ، والتَّقدُّم البحثيّ، ومُميزات الجودة استنادًا إلى معاييرها الغربيَّة، والَّتي تتفوّق من حيث التَّجهيزات، والبناء، والهيئات التَّعليميَّة، والقدرات الماليَّة على الجامعات في بلدان عربيَّة وأفريقيَّة وإسلاميّة. ولهذا، سنقرأ في تلك التَّصنيفات أنَّ الجامعات الأولى في العالم هي الجامعات في الولاياتِ المُتَّحدة، وفي أوروبا، في حين تقبع الجامعات من دول عالم الجنوب في أسفل قائمة تلك الجداول.

أثار ذلك النَّوع من التَّصنيفات وعلاقته بمرجعيَّة المعايير الغربيَّة للتَّعليم العالي الكثير من النَّقد والاستياء في أوساط عددٍ كبيرٍ من الباحثين في العالم الإسلاميِّ، وكذلك في أميركا اللَّاتينيَّة، وفي أفريقيا. وقد بدأ بعضهم يدعو إلى ما أُطلِقَ عليه «تحرير الجامعة» من الهيمنة الأكاديميَّة الغربيَّة من حيث مناهج التَّعليم، ومُقرَّرات التَّدريس، وأنواع التَّخَصُّصات على أساس أنَّ مثل تلك المناهج والمُقرَّرات والتَّخَصُّصات يجب أن تتلاءَم مع حاجات المجتمعات الَّتي تُدّرس فيها، لا أن تُنْقَل من مُجتمع آخر وثقافة أخرى. كما أنَّ تصنيفَ الجامعات نفسه لا يجب أن يخضع لأيّ معاييرَ غربيَّة؛ لأنَّ وظيفة الجامعة هي إنتاج المعرفة الَّتِي تخدم المجتمع الَّذِي تعمل فيه، وأن تُخرِّج النُّخب الَّتي ستخدم ذلك المجتمع. لذا، قد تكون الجامعة بسيطة من حيث القدرات والتَّجهيزات لكنَّها قد تُقدِّم فائدةً قصوى لمجتمعها من خلال الدِّراسات المُناسِبَة، والأعمال البحثيَّة الَّتِي تقومُ بها لفهم ذلك المجتمع، ولمعالجة مشكلاته المختلفة.

في هذا الإطار من الاستياء من التَّعالي الغربيّ البحثيّ والأكاديميّ نشرت «جيس أويرباخ» من جنوب أفريقيا، خرِّيجة جامعة «ستانفورد» الأمريكيّة الشَّهيرة،

بِمَعِيّة زميلين لها مقالًا في مجلّة «نيتشر» البريطانيَّة وعنوانه «مُمَارَسات التَّحرُّر من الاستعمارِ الفكريّ والقمع من أجلِ بيئةٍ أكثر أخلاقيَّة» وتناولت فيه البيئة والاستعمار والأخلاق. ونشرت الباحثة نفسها مقالًا عن «العلم المُتحرِّر من الفكر الاستعماريِّ: نحو مُمَارساتٍ علميَّةٍ أكثر إنصافًا».

تُشِيرُ «جيس أويرباخ» في بحثها إلى مسألةٍ في غايةِ الدِّقَّة والأَهمّيّة عن البحث العلميّ؛ إذ تقول أنّها لاحظت أنّنا نتبنَّى أشكال المُمَارسة البحثيَّة المعمول بها في الغرب بوصفها أمرًا مُسلَّمًا به، في حين أنّها أشكال تُمثِّلُ جزءًا لا يتجزَّأ من عمليَّة الهيمنةِ الغربيَّة على أنظمة المعرفة العالميَّة. ولذا، تُشدّد «أويرباخ» على نقطةٍ رئيسةٍ ومركزيّةٍ وهي أنَّ «الاستعمار الفكريّ» يجعل من الصَّعب علينا اكتشاف الطُّرُق الأخرى الَّتِي قد تكون مُمْكنة للتَّعامُل مع أسئلةٍ علميَّةٍ ذات علاقة بالبحثِ العلميِّ.

وتُشير الباحثة، في هذا الإطار، إلى ما يُعَدُّ بدَهيّات في الأدبيَّات الجامعيَّة؛ أي الألقاب الجامعيَّة، مثل: «أستاذ» و«دكتور»، لتقول: إنّها لا تكفي وحدها ليكون حاملها خبيرًا في حقلٍ علميٍّ. وتضرب مثلًا على نفسها فتقول: «أنا حائزة دُكْتُوراه من جامعة ستانفورد الرَّاقية، وحسب نظام تلك الجامعة فأنا «خبيرة» في أنغولا – وهو البلد الَّذي كان موضوع بحثي في الدُّكتوراه... ومقارنة مع عدد الأشخاص خارج أنغولا، فأنا حقًّا أعرف الكثير... ومع ذلك، وفي المقارنة مع معظم الأنغوليِّين... فإنّي ما زلت جاهلةً بشكلٍ يُرثَى له في العديد من المجالات المُهمَّة. فهل أنا حقًّا «خبيرة»؟! أم أنَّني مُجرَّد شخص يستطيع نظام الجامعات الغربيَّة الاستماع إليه؛ لأنَّني أكتب باللُّغة الإنكليزيَّة؟ ماذا لو لم أتمكّن من الكتابة على الإطلاق؟! لا شكّ أنّه من المُهِمّ أن يكون هناك جسر، غير أنَّه يجب أن ندرك ذلك الجسر على حقيقته، وأن نراه بِوَصْفِهِ حلقةَ وصلٍ في سلسلة اتِّصال، وليس بِوَصْفِه خبرةً».

تُعيب «أويرباخ» على الجامعات الأفريقيّة حرصها الشَّديد، مثل غيرها من الجامعات؛ لترتقي في سُلَّم تصنيف الجامعات دون أن تُفكّر في المضمون الَّذي تُقوّمه هيئات التَّصْنِيف: هل تُقوّمنا بناءً على ما نُغطِّي به احتياجات مجتمعاتنا، أو ما نُقدِّمه لطلَّابنا؟!

كما بدأ في أميركا اللَّاتينيَّة استخدام مصطلح «الديكولونياليَّة» Decoloniality الَّذِي يعني «التَّحرُّر من الفكر الاستعماريِّ الَّذِي يُركّز على ظواهر فكريَّة طغت

في بلدان العالم الثَّالث عقب استقلالها، وزوال الاستعمار الاستيطانيّ فيها. وقد استخدم باحثون آخرون مصطلحات مثل: «العصيان المعرفيّ»، و«تحرير الجامعة»؛ للدَّلالة على المضمون نفسه في رفض التَّبَعِيَّة البحثيَّة للغرب ومنهجيَّته الثَّقافيَّة.

في العام 2011، نُشر كتاب بعنوان «الوجه الأكثر ظُلمةً للحداثة الغربيَّة» للمُؤلِّف الأرجنتينيّ «والتر مينيولو» (80 عامًا)، المُتَخَصِّص في علم الدَّلالة (السِّيميائيَّة) وهو أحد أكبر رُوَّاد ذلك التَّيَّار المُهتمّ بتجريد فكر العالم الثَّالث من رواسب الاستعمار. وقد تناول المُؤلِّف في كتابه الآفاق العالميَّة، وخيارات التَّحرُّر من الاستعمارِ الفكريِّ.

يرى المُؤلِّف أنَّ الاستعمار ظهر خلال عصرَيْ: النَّهضة، والتّنوير؛ بوصفه هيكلًا جديدًا للقُوَّة، حيث استعمر الأوروبيُّون شمال القارَّة الأمريكيَّة وجنوبها، واعتقدوا أنَّ الحضارة الغربيَّة تُشكِّل نقطة النِّهاية في مسارِ التَّاريخ؛ وأنَّ أوروبا هي مركز العالم! لكن ما نشهده في مطلع القرن الحادي والعشرين هو أنَّ دورةَ الاستعمار تلك تقترب من نهايتها ـ حسب والتر مينيولو ـ ؛ إذ تتحدَّى الهيمنةَ الغربيَّةَ قُوَّتان رئيستان: «النَّأْي عن مُقوِّمات الحضارة الغربيَّة» في سياق تحوُّل في الصِّراعات القائمة حول المعرفة، والاقتصاد، والسِّياسة. أمَّا القوَّة الأُخرى فهي «التَّحرُّر من الاستعمار الفكريِّ». غير أنَّ القوَّة الأخيرة تتطلَّب الانفصال عن حاضنة القُوَّة الاستعماريَّة الكامنة وراء الحداثة الغربيَّة، وذلك لنتخيّل بناء مستقبل عالميٍّ لا يتمُّ فيه استغلال البشر والطَّبيعة من أجل تراكم الثَّروة بين أيدي بعضهم.

كما كتب عن مفهوم «التَّحرُّر من الفكر الاستعماريّ» عالم الاجتماع «أنيبال كويخانو» (1928م ـ 2018م) الَّذي كان أستاذًا بجامعة نيويوركيَّة، وهو أصلًا من البيرو.

ويرى المُفكِّر المصريّ عبد الوهاب المسيري في نقده لتلك التَّبَعِيَّة الثَّقافيَّة والبحثيَّة للغرب أنَّ الإنسان ينشأ في بيئةٍ حضاريَّةٍ وثقافيَّة لها نماذجها المعرفيَّة؛ ويصطدم بنماذج مختلفة مُهيمنة، تفرض ـ تلك النَّماذج ـ حضورها على مُجتمعهِ وعلى وعيهِ؛ وهي نماذج ثَبُتَ نفعها في واقعها الَّذي صدرت عنهُ وهو «العالم الغربيّ»، وذلك نتيجة التَّراكم المعرفيّ؛ وعلى هذا فهي ليست نافعةً لمجتمعات أُخرى غير غربيَّة!

لذا؛ فإنَّ تلك النَّماذج المستوردة ليست قادرةً على التَّعايش والتَّأقلم. ومِنْ

ثَـمَّ، التَّفاعـل مـع واقـع المجتمعـات غيـر الغربيَّـة، والمسـاهمة فـي تفسـيرها وتغييرهـا؛ بـل تـؤدِّي فـي الغالـب إلـى مسـخ المجتمعـات الَّتِـي تتبنَّاهـا وتشـويهها، كمـا تـؤدِّي إلـى تخلُّفهـا ثـمَّ تَبَعِيّتهـا... مـن هنـا؛ يـرى المسـيري ضـرورة البحـث فـي نمـاذج حضاريَّـة عربيَّـة إسـلاميَّة فـي مقابـل النَّمـاذج المُهيمنـة والسَّـائدة الَّتـي لا تُعبِّـر ولا تنبـع مـن واقـع الشُّـعوب والمجتمعـات العربيَّـة.

لقـد تراجـع بريـق «الأنمـوذج الغربـيّ» فـي العقـود القليلـة الماضيـة. ولـم يعـد ذلـك الأنمـوذج فـي عيـون العالـم وشـعوبه المختلفـة مرجعيَّـة مهيمنـة لا يرقـى إليهـا الشَّـكّ فـي المجـالات: الثَّقافيَّـة، والسِّياسـيَّة، والاقتصاديَّـة، والاجتماعيَّـة. ترافـق ذلـك التَّراجـع مـع نهضـة شـعوب عـدَّة فـي أفريقيـا، وأميركا اللَّاتينيَّـة، وفـي بلدان عربيَّة واسـلاميَّة، لاسـتعادة هُويّتهـا وثقافتهـا، ولكسـر التَّنميـط الغربـيّ المُتَعالـي الَّـذِي اسـتهدف تلـك الهُويَّـة فـي العقـود الماضيـة عبـر الجامعـات، ووسـائل الإعـلام، ومراكـز الأبحـاث الغربيَّة؛ مـا يُؤكِّد أنَّ تلـك الرَّغبـة فـي اسـتعادة الهُويَّـة، وفـي طريـق بنـاء النَّهضـة والاسـتقلال، سـوف تعبـر حتمـاً جسـر التحـرُّر مـن التَّبَعِيَّـة الأكاديميَّـة والمعرفيَّـة.

طلال عتريسي